بيت من عضم

المفتـــاح بجـــوار المـــذياع. الظـــلام يحـــل فتصـــم الأعـــين. فـــي الظـــلام يتســـلل الاصـــبع ليمســـك المفتاح في ظلام أيضا يرفع صوت المذياع

والضجيج يعم .

فـــي الضـــجيج أيضـــا تصـــم العقـــول .الأرمـــل وأبناءه الثلاثة

البيت حجرة،والبداية ظلام و النهاية أظلم.

***

الأرمل قصير اسمر نحيف ،في الخامسة والخمسين أبناءه أيضاً قصيرين نحفاء ،لا يرتدوا الا الملابس الرثة المهلهلة ،اصغرهم في السادسة والعشرين واكبرهم في السادسة والثلاثين ..قبيحين ورثوا الكسل والحماقة من امهم،وبالكاد أخذوا بعض اللؤم من الاب .

الحجرة،رغم ضيقها تسعهم في الليل ..ولفقرها الشديد غير مرتبة قبيحة،يشيع فيها جو المقابر وتتلوث أكثر بلمسات الذكور الأربعة .

في الليل تتكون هياكلهم كأكوام من عضم ساخن شبه حي ،بعضها فوق الفراش وبعضها حوله،تتصاعد منها الأنفاس حارة مؤرقة ، أحياناً عميقه الشهيق والزفير . الظلام خيم مذ ماتت المرأة ، والمرأة ماتت من ثلاثة اعوام بعد مرض طويل انتهى الحزن وبقيت عاداته وابرزها حب الظلام.. ظلام طويل لا يفرغ اذ كان في الحقيقة ظلام انتظار ، فالشباب كبروا والترقب والانتظار طال والعرائس لا يستجيبون. ومن المجنونة التي ترضى لفقراء قبيحين بطرق بابها ، وبالذات اذا كانوا كسولين وحمقى؟. ولكن

الامل بالطبع موجود، لكل حمار اتان. فاذا كان الفقر هناك فهناك دائما من هي أفقر ،واذا كان القبح هناك فهناك دائما الاقبح ،واذا كان الكسل هناك فهناك دائما الاغبى والأكثر حماقة والأماني تنال احيانا بطول البال او هكذا نامل .

***

ظلام لم يكن يقطعه الا مجيء مرأة ذات ضحكات خليعه.. تتصاعد بسخونة وانفعال واحيانا بافتعال ، والمرأة كانت عاهره ثم تابت أو هكذا أدعت ،بعد أن سجنت بضعة أعوام وارتسم على وجها خرائط مجهولة غيرت ملامحها، عادت فلم تجد إلا الصديق القديم ، الأب.. في مغرب كل خميس تأتي لتجلس مع الاب بضع ساعات، يتسامرون ويضحكون. وكرما منها أحيانا تنظف وترتب البيت وتطبخ .ورغم كبر سنها إلا إنها ما زالت تتمتع بالصحة ، وما زالت تحتفظ بأنوثتها المشوهة ،بالتعود تأتي. وبالتعود تفتح باب الحجرة علي مصرعيه ليدخل النور و تنظف وترتب وتطبخ وبالعادة تتسامر وتضحك ،حتى لم يعد احد من الابناء يشعر او ينتبه اليها.

.....

دائم هو الظلام .حتى و مجيء المرأة مغرب كل خميس ، النور متقطع غير دائم يشوبه الظلام . والظلام نهوم دائما يترقب غفلة النور ..

يدوم الظلام حتى يحدث شيء.. يجئ مغرب الخميس ولا تأتي المرأة.

ويدرك الأرمل وأولاده الان فقط كنة ما تقدم ، المرأة الوحيدة التي كانت ولو في الاسبوع مرة تدق الباب ،بل اشياء اخرى يدركوا .. فقيرة مثلهم و قبيحة هذا صحيح ،ولكن ملابسها دائماً كانت نظيفة ، أظافرها مطلية وشفتيها تلمع ، وضحكتها حتى وإن كانت أحياناً مصطنعة مليئة بالحنان والدفء .

والاقتراح يبدأ : لماذا لا يرسل في طلبها في هذه اللحظة ؟ فلتاتي لتأكل معنا مشغولة ،فليكن . الانتظار ليس بالجديد. و قرب المغرب تأتي ، وتضحك وتتسامر وكأنها اول مرة تأتي ، والاقتراح ينشأ. لماذا لا يتزوج أحدهم امرأة تملأ عليهم الدار ؟. نعم كبيرة في السن و قبيحة ،لكن لا يهم . لا تأتي النساء إلا بالنساء . بقرة واحدة تكفي لإحياء الأرض البور ، وهي ايضا تبحث عن من يأويها ، ظل رجل افضل من ظل نخلة .

الاولاد يقترحوا والاب ينظر في وجوههم و مناطق أخرى ،ليحدد من يكون صاحب النصيب والاقتراح . ولكن الوجوه تزور مقترحة فقط مقترحة .قائلة بغير كلام :أنصوم ونفطر على امرأة عجوز ؟ نعم امرأة محتفظة ببعض أنوثتها وتمتع ببعض الصحة لكنها عجوز . هم مازالوا يحلمون بالعرائس الصغيرات الفائرات ، والعرائس الفائرات وأهلهم عادة لا يروا الا المال و المنصب والوظيفة وأشياء أخرى. الا من رحم ربي . مساكين لم يعرفوا بعد عالم النساء ، و محال أن يفهموا أن المرأة ليست بسنها أو جمالها أو جسدها .

- تزوجها انت يا ابي .. تزوجها.

- أنا ؟لكني اريد أن افرح بأحدكم قبل أن أموت

- تفرح بماذا. حفيد ؟! الأرض تصلدت وبارت يكفيها بئرا مالحا. تزوجها انت ..

وتزوجها .. زاد عدد الأنفس واحدة ، وأصبح البيت مرتبا نظيفاً منيرا وزاد الرزق قليلا . ونشط الشباب. ونشأت كارثة اكبر .

الليلة الاولى انقضت والعروسان يتسامران ويضحكان أمام البيت ،والمذياع يدندن ويطرب بصوت ام كلثوم و عبدالوهاب و يضج بغيرهم ،حتى مطلع الفجر ،خرج الابناء في النهار بحثا عن رزقهم ،ولم يعودوا الا قرب المغرب ،مترددين خجلين يقدموا رجلاً و يأخروا اخرى، حتى ازدادوا قربا .اندهشوا . ارتبكوا ثم ضحكوا .. سخسخات امرأة يتخللها قهقهة رجل ، أباهم لابد هو من يضحك ، والمرأة التي ينظرون إليها دائما كأطفال ، متلألئة في الاحمر رأسها عاري وشعرها مبلل ممشط ، حورية بحر عجوز و قبيحة لكنها تظل حورية . واباهم .خطوط وجهه تفككت وانفرجت، عينية اشتعلت وانفرج ظهرة . قابلهم مشيرا إلى المذياع المعلق .

- عندما يدندن المذياع أو يضج ، والباب مغلق فلتستمتعوا به أمام البيت . حتى أخرج .

قوبل كلام الاب باستغراب واستعجاب وخجل .

- لديه النهار بأكمله الا يكفيه . اين نذهب ليلا؟

ـ أنـه محـق. أنـها حجـرة . والنـهـار عمـل. قالـها كبيرهم.

يـــأتي الاب قبيـــل المغـــرب ،يدنـــدن المـــذياع بالضـــجيج ،ينســـجم الاولاد إجبـــارا منتظـــرين ، حتـــى يرفـــع اذان العشـــاء، ويفـــتح الاخـــنس الهمـام البـاب، ويـدخل الاشـبال منهكـون. الخيـال منهـك، مـع قلـة الحيلـة يصـير فتـاك . ولكـن لا مانع فالفرج قريب .

ـ نعـم يـا ابنـائي لقـد أوصـيت زوجتـي بعـرائس لكم . تجهزوا و لا تقلقوا .

الظـلام تلاشـى واختفـى . النـور شعشـع فـي أركـان البيت ، والتفاؤل أنعش قلوب المنتظرين .

ومـرت الايـام ومـازالوا منتظـرين. متشـبثين بخيـوط الامـل . لا جديـد يـذكر . الأنفـاس الثلاثـة تتعـالى عميقـة حـارة كأنهـا محمومـة مهمومـة سـاخنة حارقـة ،بالفحولـة تجـأر. الخيـال يسـيطر علـى ويسـطر الاوهـام ، يجـيش الرغبـات فـي حـرب مكاسبها خسارة .حوريات تتقافز من حلم الى اخر منتهكـين حرمـات الحرمـان،براكين علـى وشـك الثـوران والانفجـار.جوع مـا ابشـعه ، نهاشـا للـروح حارقـا للبـدن .يظلـل العقـل و يدفنـه حيا.اسـهل ابـواب الظـلام تسـللا تصـير علـى مصـرعيها.ارض خصـبة

،لـم ينبـت فيهـا مـن قبـل شـوك أو زرع مرتويـة متلهفـة للبـذور .شـجيرات لا بأس.ذروتهـا مهلكـة جشـعة، قابلـة متقبلـة.لا مـانع لأشـجار ميتـة أو حتـى محترقة .انين وعذاب من قاع الجحيم .

بعـد فترة،جـف البئـر ،لكـن الأرض ارض إن كانـت بـورا. لـم يعـد الراديـو يدنـدن ،و مفتـاح البيـت صـار معلقـا أمـام البـاب منتظـرا مـن يـأتي اولا ،والمـرأة إمـا نائمـة أو خـارج البيـت ،والاب يـأتي متـأخرا . وذات مـرة رجـع الرجـل قبيـل المغـرب كعادتـه القديمـة ، فتسـلل اصـبع إلـى الراديـو ليدنـدن مـن جديـد ويضـج ، وإصـبع يلتقـف المفتـاح .واغلـق البـاب . فوجـد زوجتـه نائمـة فايقظهـا . فسـألته عمـا كـان بـه سـاعة العصـر .ولمـاذا اطفـأ المصـباح علـى غيـر عادتـه . وسـبب نشـاطه وتلهفـه الشـديد والأغرب من كل ذلك صمته الغريب؟؟ ..

فصـعق الرجـل مـن مـا سـمعه. كـان ممكنـا أن يجـن . كـان ممكنـا أن يقتلهـا .فلـيس لمـا تقولـه الا معنـى واحد أو ثلاثة . ما ابشعه واغربه . لكن من هو ؟

والأهم كيف هي لم تعرف ؟؟

الظـلام . نعـم هـو الظـلام . لكـن حتـى فـي الظـلام .القلوب تشعر .. وأشياء أخرى .

أم تعرف؟!!

من الجاني ؟؟

الخائنين، الحمقى الملاعين... الجائعين المتلهفين العطشى .المنتظرين، لأي لحم يكسوا عظامهم المنخورة وقلوبهم المبتورة .

ام التائبة ؟

ام زوج التائبة؟

الطعام حرام لكن الجوع أحرم، والظلام أكفر ،والضجيج أحقر..

وكسر المصباح .

وساد الظلام من جديد . وزاد الضجيج .و المذياع يطرب تارة ويضج تارة، في اليوم أربعة مرات أو أكثر .

و ذات يوم وقع المذياع ارضا .فأسرع اربعتهم لشراء مذياع جديد ،فأتوا بأربعة مذاييع .

في بادئ الأمر، لم يكن يعنيها هوية من معها في الظلام .فالزوج هو المسؤول هو القوام هو من يقود،قيادة أو قوادة ، الأمر لا يعنيها في الأساس المرأة عاهرة تائبة .

وليس على العاهرة حرج . وان تابت.

ام على العاهرة حرج ؟؟